لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٤ — من السنة ٥

علم القوميات العراقية

Folklore irâquien.

عند علماء الغرب اليوم فرع من العريقيات (الاركيولوجية) اسمه علم القوميات Folklore يبحث عن اداب الاقوام ومأثوراتهم واوابدهم وخرافاتهم ومعتقداتهم وعاداتهم واخلاقهم واغانيهم الى ما جارى هذا المجرى .

واول مرة جاء ذكر « علم القوميات » كان في سنة ١٨٣٦ في المجمع الانكليزي المسمى « اثينيوم » إلا ان حقيقة هذا العلم اقدم من اسمه بكثير ثم في اواخر المائة الثامنة عشرة للمسيح نشر ماكفرسن الانكليزي كتابا سماه «مقاطيع من الشعر القديم» ثم جاء علماء سائر الامم الافرنجية ونشروا ما يدخل تحت هذا الباب وزادوا عليه ووسعوه .

وبعد سنة ١٨٨٠ نشأت في ديار الافرنج جمعيات وشركات عديدة غايتها البحث عن اغاني العوام وتقاليدها ومأثوراتها وامثالها واوهامها والعابها وخزعبلاتها ومضحكاتها ومبكياتها . وبكلمة واحدة ، عن كل ما يتعلق بالعامة باي وجه كان.

واليوم نرى في ديارهم مجلات وجرائد تنشر مثل هذه المباحث ، فضلا عن الاسفار التي توضع لمثل هذه الغاية ، فيقبل على مطالعتها الناس اي اقبال !

اما الغرض من الوقوف على هذه الانباء فهو معرفة البيئة الفكرية بل الجو الفكري الذي يستنشقه القوم الفلاني ليكون الباحث على بينة مما كان عليه ذاك القوم من حالة العلم والحضارة وتتبع لغاته او لغياته التي توصله بالاقوام او القبائل او الاجيال التي نطقت بها ، فيقف على اصلهم ووطنهم الاول ، ويعرف كيف ان القوي ابتلع الضعيف في كل مزية من مزاياه ، وباي شيء بدأ ليبتلعه او يزدرده ويهضمه ليتمثله ، وباي شيء او باي اثر اثر فيه كما يقف على حقيقة ضعف القوم الذي انحط الى غير ذلك من الحقائق التي لا تأتينا ابدا عن لسان الفصحاء من الكتاب بل عن عوامهم ، لان الفصحاء قد الفوا انشاء بل صناعة كتابة هي غير ما ينطقون به او يسمعونه ، بل يصونون ما يوافق اهواءهم واهواء من يميلون اليه وينسون ما يفيدون به الاجيال الآتية التي تود الاطلاع على دخائل الامور التي ساقتهم الى ما اتوه مهما كان ذاك العمل .

اما الديار العربية اللسان فليس لها من هذا القبيل شيء يذكر وما دون منه اغلبه للاجانب . وكنا نحن قد جمعنا الامثال العامية . وحكايات للعوام من الستة اليهود والنصارى والمسلمين فنهب اكثرها فريسة غائلة الحرب وبقي عندنا منها شيء نزر . وكان غيرنا قد شرع بنشر امور مختلفة في هذه المجلة لولا هذا الفراغ ثم انقطع البحث باحتجاب المجلة وعبث الحرب المشؤومة بكل اثر من اثار الادب والتاريخ والعلم والصناعة .

وها نحن اولاء نعود الان الى ما شرعنا به سابقا ، وقد اودعنا الامر الى احد شبابنا النوابغ في هذا العراق الفض وهو الصديق الودود احمد حامد من آل الصراف ، ولا نظن ان احدا ينكر عليه هذا التخصص القومي ، ومن يطالع هذه المقالة وما يتلوها يشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع .

[لغة العرب]

١ — اول سماعي للخرافات

ثم ! (فقد جاء الطنطل ، جاء الغول ، جاءت السعلوة)

بهذه الكلمات وامثالها كانت تخيفني (جدتي) بغية ان اضطجع في فراشي وان اقلع عن الهرج الذي كنت احدثه ليلا ، وبهذه الكلمات كانت تخيف جدتي اخي الصغير . وكان لهذه الكلمات وقع شديد في فؤادي بل كانت تقع على رأسي وقوع الصاعقة او الداهية ، فكان يعتريني الذعر والفزع ، وكنت احس بقشعريرة في جسدي واشعر بان يدا تريد ان تخطف قلبي من بين اضلعي. وكم ليلة بت فيها ساهرا خائفا لم اذق فيها طعم الكرى من هول تلك الكلمات وما كانت تتلفظ به جدتي اي (الطنطل او الغول او السعلوة) حتى كنت تراني خامدا جامدا كمن اصابته زمانة او شلل فكنت لا ابدي حراكا وكانت تتمثل امام عيني اشباح تقذف الرعب في قلبي .

ولئن زاولني الكرى في الليل فكنت اخاف غمرات احلام مزعجة ورؤى هائلة وكنت مع شدة خوفي من هذه الالفاظ الج لجاجة الطفل ، والح الحاحا كثيرا على جدتي ان تقص علي نبأ (الطنطل) وحديث (الغول) و (السعلوة) وكانت جدتي من العجائز اللائي لم يرزقن علما ولم ينلن تهذيبا وكانت امية تجهل القراءة والكتابة وقد عاشت في وسط جاهل وبيئة خرافية وكانت تعتقد بالجن والطلاسم والاعاجيب والسحر على نمط عجائز هذا اليوم .

٢ — الطنطل

وقد وصفت لي الطنطل(١) وانا يومئذ لم ابلغ السابعة او الثامنة من العمر، قالت:

« الطنطل يشبه الرجل إلا انه عظيم الجثة كبير الرأس وهو اضخم من الجاموس او الفيل وهو يأوي الى الخرائب ويقف ليلا تحت الطيقان وهو جبار يخطف العقول ويصرع الناس صرعة لا نهضة بعدها . واذا اراد الانسان ان يتخلص منه اخذ معه مخيطا (اي مسلة او ابرة ضخمة) وغرزها في مذاكيره فانه ينقلب للحال حمارا او حيوانا آخر يركبه الانسان » .

(١) وزان حنظل . وما يروى هنا عن الطنطل قد يرويه اخرون بصورة اخرى وينسبون اليه حكايات غير هذه الحكايات فطنطلنا طنطل اللوذيين يعينه اي Tantale ل . ع

٣ — الغول

وصورت لي (الغول) (١) بصورة رجل يشد على رأسه عقالا وكوفية ويأخذ معه سلاحا على الغالب وهو يسكن المقابر والكهوف ويتنقل في البيد بسرعة البرق مفتشا عن انسان ، حتى اذا صادف واحدا من بني آدم حدثه باعذب الكلام والطف العبارات وجره الى مغارته او كهفه حيث يلاقي حتفه فيكون شواء لذيذا وطعاما سائغا ، وقالت عن وجهه : انه يشبه وجه الكلب ولهذا يسدل عليه برقعا فيه وصواصان (والوصواص خرق في البرقع بمقدار العين تنظر فيه) اما ارجله فكأرجل الانسان استقامة إلّا ان ظلفين يقومان مقام القدمين . والغول يخاف (المسحاة) فاذا عرفه الرجل وصاح باعلى صوته « اين المسحاة؟ » فر الغول هربا ولم يلتفت الى ورائه .

٤ — السعلوة (والسعلاة)

وصورت لي (السعلوة) (١) بصورة امرأة طويلة سوداء ذات شعر كثيف طرطبة اي ذات ثديين عظيمين كل واحد منهما اكبر من الزق بل كالدن الكبير والسعلوة تسكن تحت الماء وهي تحوم حول الاجراف لتخطف رجلا تتخذه لها بعلا اما اذا عثرت على امرأة فانها تمزقها وتاكلها ، وقد ذكرت لي اخبارا لتقنعني بوجودها ، فقد قالت لي ان احدى النساء حدثتها عن خروج (السعلوة) في (بروانة) وقد اشتركت في اللطم والنواح على رجل كريم من اهل (بروانة) و (بروانة)(٢) بليدة واقعة على الفرات في انحاء هيت وعانة وآلوس . قالت وقد وقفت (السعلوة) تنوح وتنشد :

تبكي الحديثة(٣) وعانه(٣) على القرم(٤) ابن بروانه
على الذي عيش (السعلوة) ومن بعده ما كانا

(١) السعلوة بضم الاول والثالث وتشديد الواو المفتوحة هي بلسان العراقيين ما يسميه الفصحاء بالسعلاة

وحكايات الغول والسعلاة عند السلف اشهر من ان تذكر فهي من مختلقات الخيال البدوي . (ل.ع)

(٢) الكلمة ماخوذة من الفارسية بروانه ومعناها الدولاب لان الدواليب او النواعير تكثر فيها (ل.ع)

(٣) اسم بليدة على الفرات (٤) الشاب القوي السيد الكريم (ل.ع)

وقالت ايضا : ان سعلوة جلست ذات يوم على جرف نهر دجلة وجلست على الجرف الاخر سعلوة اخرى فخاطبت الواحدة الاخرى طالبة منها (سفوفا) لابنها :

فقالت لها : (خيي خواتي) — اي يا اختاه .

فاجابتها الاخرى : (عزي وحياتي)

فقالت لها : (عندح علايج للصلايج أمسى يعالج من أفادة) — اي أعندك علاج للصلايج (وهو ابنها) فقد امسى يقاسي (يعالج) آلاما اصابت فؤاده .

فقالت لها الاخرى : حالفة بابنائها الخمسة : لا اثر للعلاج لدي . وهذه عبارتها :

« وحق زيدح زميدح مكه ، والحبش ، والطير ، ماعندي غيارة » اي لا املك شيئا ولو بقدر ذرة الغبار .

٥ — خرافات اخرى

اجل ! بهذه العجائب كانت تحدثني جدتي ، وقد فتحت عيني متتبعا لبعض العوائد من ذلك ان اهلي كانوا لايخيطون لي ثوبا يوم الثلاثاء .

ولايرحلون بي الى بلد آخر يوم الجمعة .

وكانوا لايسقون الجار (ملحا) اذا جنح العصر او قارب المساء .

واذا صرخ بي استاذي او ضربني ابي قالوا (اخترع) اي فزع فجاؤوا (بالحرمل) واحرقوه بالنار وادارو ه على رأسي ثلاثا .

وكانت التمائم والحروز والطلاسم لاتفارق صدري .

وكنت اشتركت مع الرجال والنساء عند قيامهم بتمثيل دور (حمير الشيجي) الذي ساحدثك عنه قريبا .

وبالجملة فقد كنت في الصغر صبيا خرافيا اعتقد بكل ما كانوا حدثوني به بيد اني نشأت وفي نزعة شديدة الى معرفة هذه الامور الخفية والاسرار الغامضة .

٦ — انقشاع سحب الخرافات عن فكري

فلما بلغت العاشرة نجيبه بي الى بغداد فولجت ابواب المدارس ونلت من العلم

والتهذيب ما كان كافيا لازالة ادران الخرافات واوساخ الاساطير من رأسي . وبقيت عدة اعوام اتلقى علومي في المدارس حتى كان عام ١٩١٨ فعينت مديرا لمدرسة كربلاء فمن لي اذ ذاك ان ادرس هـذه العوائد والاوابد وان اثبت حقيقتها ، فكنت اغشى الاعراس والمآتم واسائل هـذا وذاك بلوغا الى امنيتي .

ثم تجولت في اغلب مدن الفرات ودونت تلك العوائد العجيبة حتى حلول سنة ١٩٢٧ فكتبت ما يقرب من نيف والف اسطورة وبوبتها باحثا عن علة كل منها فاستطعت ان الم بكثير من اسبابها وكان بودي ان ارجع كل خرافة الى اصلها الاصيل وموطنها الاول إلا اني احجمت عنها اخيرا لان معرفة منشأ الاساطير العراقية يحتاج الى درس اوابد الامم الاسوية كافة وهذا يحتاج الى عمر اطول من عمر نوح اذ ان دراسة مثل هذه الاوابد تتوقف على دراسة التاريخ بصورة عامة مع معرفة العوائد والعقليات السابقة .

واعتقد ان دراسة هـذه الاساطير من اصعب الابحاث واعوصها ـ هذا اذا اردنا ارجاعها الى اصلها ـ لان العراق قد امتد اقوام عديدة وسكنته قبائل وشعوب كثيرة كالاكديين والشمريين والكلدان والاشوريين والفرس واليهود والاغريق والرومان والقرس والعرب والترك . فقد جاءت هذه الاقوام ومعها عوائدها واساطيرها وخرافاتها فاختلطت بعضها ببعض والامم تلقح بعضها بعضا افكارها وعوائدها . والشعوب تقتبس من كان اعظم منها وتقتبس منها ما يطيب لها . لذلك تراني لا اعتقد بعراقية الاساطير التي دونتها في رسالتي هذه واظن كل الظن انها بقايا عوائد قديمة لامم قديمة كانوا يعتقدون بصحتها وصوابها فهي اذن مزيج الخرافات التي جاءت بها الشعوب الفاتحة

واكبر برهان على ما اقول هو ماشاهدته وما اشاهده اليوم بعيني من عادة جديدة جاءتنا حديثا من بلاد الانكليز الى العراق وهـذه العادة هي ان الانكليز لايضرمون ثقابا (كبريتا) لثلاث دخينات (سكائر) معتقدين انه لابد من ان يصيب الثالث طامة او داهية وقد لاحظت كثيرا من شبان بغداد الحاليين يتبعون هذه العادة المضحكة وكما ان الخرافات موجودة لدى الاقوام الجاهلة والمنحطة

كذلك تراها عند الاقوام الراقية إلّا ان الفرق هو ان اوابد الاقوام الراقية ملطفة وهي اقل سخفا من عوائد المتحطين .

اضرب لك مثلا وهو كراهية الانجليز للعدد ١٣ وتشاؤمهم الشديد منه فاذا اموا مأدبة او جلسوا على مائدة الطعام عدوا الاشخاص فاذا كانوا ١٣ قام احدهم على الفور وغادر المحل .

اما سبب نشأة الاساطير فقد يكون بدافع غريزة الخوف والوهم كما يدعيه بعض المؤرخين او سببه الجهل وعدم معرفة اسرار الطبيعة او جهل حقائقها كما يدعيه الاخرون. اما انا فاعزو نشأة الاساطير الى الخوف المتمكن من الانسان والجهل وعدم الالمام بشؤون الطبيعة معا واعتقد كل الاعتقاد ان الامم كلما تقدمت تقدما ادبيا وعلميا ونال افرادها تهذيبا صحيحا انقرضت اساطيرها ورحلت عن بلادها شيئا فشيئا لان سبب الخوف هو جهل الطبيعة فاذا عرف الانسان اسرارها زال ما كان قائما على فؤاده من الذعر والوساوس مثال ذلك : انني كنت اعتقد وانا طفل بان سبب خسوف القمر هو ان «الحوت» يبلعه وكان اذا حدث خسوف فزع الناس كلهم وانا منهم سواء كان في بغداد او في مدن العراق الاخرى ولاسيما النساء والاطفال والعوام الذين لم ينالوا قسطا وافرا من التهذيب فسهروا ليلتهم وضربوا الطبول وقرعوا الاواني من النحاس وربما واصلوا هذه الحالة حتى طلوع الشمس . ولما درست اسباب كسوف الشمس وخسوف القمر اتضحت لي الحقيقة وزال عني ذلك الوهم وتلك الوساوس . واصبحت اذا خسف القمر اقهقه ضاحكا من عقول الاخرين فيفهم من هذا ان جهل الطبيعة هو السبب الاول لنشأة الاساطير .

وصفوة القول اني مقدم بين يديك ايها القارىء ما دونته في ظرف خمس سنوات من الخرافات والعوائد والاساطير بعد الجهد الجهيد والتعب العظيم واني مستعد في كل وقت ان احاج من ينكر علي صحة وجودها اليوم في العراق مستدلا بالوقائع وآتيا بالبراهين على ذلك وما قصدت بذلك سوى خدمة التاريخ العراقي وحسبي فخرا .

احمد حامد آل الصراف